

الامام احمد بن حنبل

الشيباني

مولده ونشأته

هو ابو عبدالله احمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الدهلي الشيباني المروزي (نسبة الى مرو) ثم البغدادي قدم به أبوه من مرو وهو حمل فوضعت أمه في بغداد وتوفي أبوه وهو ابن ثلاث سنين . قال صالح بن الامام أحمد « قال لي أبي ولدت في ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة قال صالح وجيء بأبي حمل من مرو فتوفي أبوه محمد شابا ابن ثلاثين سنة فوليت أبي أمه . وقال أبي وكانت قد ثقت أذني فكانت أمي تصير فيهما لأولوتين ، فلما ترعرعت نزعتهما ، فكانتا عندها فدفعتهما الى فبعتهما بنحو من ثلاثين درهما . .

وينسب الامام احمد عادة الى جده فيقال « أحمد بن حنبل » لأن جده كان أشهر من أبيه فقد كان واليا على سرخس - من أعمال خراسان - وناصر الدعوة العباسية أول عهدهما ، وأوذى في ذلك في حين كان أبوه « محمد » بتعبير ابن الجزري « في زى الغزاة » أى انه كان من سواد الجند المجاهدين ، وان روى عن الأصمعي أنه كان قائدا .

وأما هي صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني . فهي شيبانية كأبيه . وكانت هي التي كفلت أحمد وأدبته فأحسن تأديبه . مع الله ..

وشيبان قبيلة ربيعة عدنانية من صميم العرب ، تلتقى مع النبي صلى الله عليه وسلم في نزار بن معد بن عدنان . عرفت بالهمة والنخوة والاباء والحمية . وأنجبت الكثير من مشاهير العرب وفرسانهم في الجاهلية والاسلام . وكانت منازلها بالبصرة . وكان الامام أحمد اذا جاء البصرة صلى في مسجد مازن ، وهم من بنى شيبان ويقول « انه مسجد أبائي » .

كانت لوائح النجابة تظهر عليه من الطفولة ، فحفظ القرآن ودرس الفقه واللغة وروى عنه أنه قال « كنت وأنا غليم أختلف الى الكتاب ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة » وكان شغفه بالعلم واقباله عليه يحفزه للخروج قبل انبلاج الفجر فتأخذ أمه ثيابه وتقول حتى يؤذن الناس أو يصبحوا وأسترعت نجابته بعض الذين عرفوه وقتئذ قال الهيثم ابن جميل « إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه » .

طلبه العلم

عندما بلغ السادسة عشر جلس الى القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة وروى الحافظ الذهبي في تاريخه عن الخلال أن الامام أحمد كان قد كتب كتب الرأى وحفظها ثم لم يلتفت إليها . وشرح الله صدره للحديث فلزم هشيم بن بشير بن أبي حازم المواسطي (ولد سنة ١٠٤) وتوفى سنة ١٨٢) الذي انتهى اليه علم الحديث في بغداد وكان هشيم ذا سمت وهيبة رفعه خلقه وعلمه وتقواه وورعه فوق مستوى المنبت والمنشأ . فقد كان أبوه بخارى الأصل أقام فترة بواسط كان فيها - فيما يقال - طباحا للحجاج بن يوسف - قال حماد بن زيد « ما رأيت في المحدثين أنبل من هشيم » وكان بعض المحدثين يقدمونه على سفيان الثوري - وروى عنه مالك بن أنس وأثنى عليه .

لزم الامام أحمد هشيم « أربع أو خمس سنوات وسمع منه كل ما عنده ، وحفظ كل ما سمعه وروى صالح بن الامام أحمد عن أبيه قال « كتبت عن هشيم سنة تسع وسبعين ، ولزمناه إلى سنة ثمانين ، وإحدى وثمانين ، واثنيتين وثمانين وثلاث ، ومات في سنة ثلاث وثمانين وكتبنا عنه كتاب الحج نحو من ألف حديث وبعض التفسير وكتاب القضاء وكتبنا صغارا وسأله ابنه صالح عن ذلك يكون ثلاثة آلاف قال أكثر » .

ومع هذه الملازمة ، فإنه كان يتردد على بعض مجالس المحدثين الآخرين فيروى أنه سمع من عمير بن عبد الله بن خالد قبيل موت هشيم وأنه سمع عن عبد الرحمن بن مهدي وأبي بكر بن عياش .

وبعد موت هشيم أخذ الامام أحمد يطلب الحديث من مختلف الشيوخ في بغداد نحو من ثلاث سنوات وفي السنة السادسة والثمانين بعد المائة بدأ رحلاته للسمع من شيوخ

الامصار كما كان الدأب وقتئذ فرحل إلى البصرة خمس مرات كان يقيم فى بعضها قرابة ستة أشهر ، أو أقل ، ورحل إلى الحجاز خمس مرات لقى فى بعضها الشافعى قال الامام أحمد « حججت خمس حجج منها ثلاث راجلا ، وأنفقت فى إحدى هذه الحجج ثلاثين درهما ، وقد ضللت فى بعضها عن الطريق وأنا ماشى فجعلت أقول « يا عباد الله دلونى على الطريق » حتى وقعت على الطريق » ورحل إلى اليمن فسمع من عبد الرزاق بن همام ومكث بها سنتين ورحل إلى الكوفة ، ووعد الشافعى بالرحلة إلى مصر ولكن حالت دون ذلك الحوائل . ولم ينتهى الامام أحمد عن طلب العلم حتى عندما تقدمت به السن وصار اماما وسأله أحد الناس عن هذا الطلب « إلى متى وقد بلغت هذا المبلغ وصرب إمام المسلمين » فقال ابن جنبل قوله المأثور « مع المحبرة إلى المقبرة » .

ولعل أعظم من أثر فيه من هؤلاء الشيوخ بوجه خاص هما هشيم والشافعى . وعن الأول أخذ الحديث وما ينبغى جلسه من وقار وما يجب له من دقة ، وعن الشافعى أخذ أصول الاستنباط الفقهي .

وكان الامام أحمد حريصا على لقاء ابن المبارك والسماع منه . فذهب إلى مجلسه سنة تسع وسبعين ومائة أول سماعه من هشيم فقالوا قد خرج إلى طرسوس وتوفى سنة إحدى وثمانين ومائة ، كما تأثر بسفيان الثورى وألم بحديثه قال عبد الرحمن بن مهدي عن أحمد « هذا أعلم الناس بحديث سفيان الثورى » وكان كل من سفيان الثورى وعبد الله بن المبارك مثلا فى الجمع ما بين العلم والعمل .. والقوة والورع .. وهى الصفات التى نجدها بارزة لدى ابن حنبل . وكان الامام أحمد يرغب الاستماع إلى مالك ولكنه مات قبل أولى رحلاته قال « فاتنى مالك فأخلف الله على سفيان بن عيينة . وفاتنى حماد بن زيد فأخلف الله على اسماعيل بن علية » .

جلوسه للتدريس

وعند ما بلغ الامام أحمد أربعين عاما جلس للدرس والفتوى بعد أن عرف فضله وظهر علمه وقصده الناس للسؤال وكان مجلسه تلفه السكينة ويغشاه الوقار . نقل الذهبى فى تاريخه عن المروزى صناحب أحمد « لم أر الفقير فى مجلس أعز منه فى مجلس أبى عبد الله . كان مائلا إليهم مقصرا عن أهل الدنيا ، وكان فيه حلم . ولم يكن بالعجول بل كان كثير التواضع والوقار إذا جلس مجلسه بعد العصر لا يتكلم حتى يسأل » وقدر الذين

يحضرون درسه بالمسجد بعد صلاة العصر بقراءة خمسة آلاف يكتب منهم خمسمائة ، كما كان له بالاضافة إلى درسه العام درس خاص يلقي فيه خاصة تلاميذه .

ولوحظ في هذه الدروس أن الامام أحمد بن حنبل كان يعود إلى مراجعة المكتوبة ، ولا يكتفى بحافظته القوية تخرزا واختراسا وأخذاً بالأحوط والاثبت وحرصاً على الدقة قال ولله عبدالله « ما رأيت أبى حدث من حفظه من غير كتاب إلا بأقل من مائة حديث » وربما ذكر الحديث من ذاكرته فإذا أرادوا كتابته استمهلهم حتى يملئهم إياه من الكتاب قائلًا الكتاب أحفظ شيء . وكان يحث أصحابه وتلاميذه على أن لا يحدثوا دون كتاب ، وكان على بن المديني لا يحدث إلا من كتاب وقال « ان سيدى أحمد بن حنبل أمرنى أن لا أحدث إلا من كتاب » . وبقدر هذا التشديد فى كتابة الحديث النبوى كان الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يرفض أن تكتب فتاويه ويكره أن ينقلها أصحابه عنه . قال أحمد بن الحسين بن حسان « قال رجل لأبى عبدالله أريد أن أكتب هذه المسائل فإنى أخاف النسيان فقال أحمد بن حنبل لا تكتب فإنى أكره أن أكتب رأى » وأحس مرة بإنسان يكتب ومعه ألواح فى كفه فقال لا تكتب رأيا لعلى أقول الساعة بمسألة ثم أرجع عنها غدا ويروى أن عبدالملك بن عبدالحميد الميمونى المتوفى سنة ١٧٤ قال « سألت أبا عبدالله عن مسائل نكتبها فقال أى شيء تكتب يا أبا الحسن فلولا الحياء منك ما تركت تكتبها ، وأنه على لشديد والحديث أحب إلى منها قلت إنما تطيب نفسى فى الحمل عنك . إنك تعلم أنه منذ مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد لزم أصحابه قوم ثم لم يزل يكون للرجل أصحاب يلزمون ويكتبون قال من كتب ؟ قلت أبو هريرة وكان عبدالله بن عمر^(١) يكتب فقال لى فهذا الحديث فقلت له فما المسائل إلا حديث ومن الحديث تتشقق » وربما أنكر نسبة ما يكتب من فتاويه إليه أو يذكر الرجوع عنها تثبيطا عن كتابتها . ولايتراجع عن ذلك إلا فى حالات خاصة كالتى وردت فى المنهج الأحمد من أن اسحق بن منصور بن منصور المروزى المتوفى سنة ٢٥١ نقل عن الامام أحمد بن حنبل فلما أعلن الامام أحمد رجوعه عن هذه المسائل جمع اسحاق تلك المسائل فى جراب وحملها على ظهره وخرج راجلا إلى بغداد وهى على ظهره وعرضها على أحمد واحدة واحدة فأقر له بها وأخذ العجب منه . مما يدل على أن إعلان الامام أحمد الرجوع أو إنكاره نسبتها إليه لايعود إلى خطأ وإنما المقصود به عدم حمل الناس على الالتزام بها لأنها اجتهاد منه ولأنه لم يكن يستجيز تدوين شيء إلا الكتاب والسنة سواء فى ذلك فتاويه أو فتاوى غيره حتى وإن كان يقدرهم تقديرا كبيرا كعبد الله بن المبارك والشافعى . وكان له فى هذا نظر نافذ وحكمة بالغة وإن لم يأخذ الناس بذلك فجمعوا آراءه وجعلوها أصلا للفقهاء الحنبلى .

(١) هكذا جاء بالأصل « المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الامام أحمد بن حنبل وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ولعل صاحبها عبدالله بن عمرو لأنه هو الذى كان يكتب وكان يطلق على صحيفته الصادقة .

كما يلحظ أن الامام أحمد رحمه الله لم يكن يحدث ابتداء ، ولم يكن هو الذى يستهل بالدرس . وإنما كان يرد على الأسئلة . فإذا لم يسأله أحد لم يتكلم . روى ابن الجوزى عن أبى حاتم الرازى « أتيت أحمد بن حنبل فى أول ما التقيت به فى سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وإذا هو قد أخرج معه إلى الصلاة كتاب الأشربة وكتاب الايمان فصلى فلم يسأله أحد فردده إلى بيته ، وأتيته يوما آخر فإذا هو قد أخرج الكتابين فظننت أنه يحتسب فى إخراج ذلك لأن كتاب الايمان أصل الدين وكتاب الأشربة يفرق الناس عن الشرفان أصل كل شر من السكر » .

ولم يكن مجلس الامام أحمد مجلس علم فحسب ، لأن شخصية أحمد بن حنبل نفسه لم تكن تقل عن علمه ، وكان الكثيرون يحتسبون الجلوس إليه ، والتعرف على هديه وخلقه والتأدب بأدبه . وروى ابن الجوزى فى المناقب عن بعض أصحابه « أختلفت إلى أبى عبدالله أحمد بن حنبل اثنتى عشرة سنة ، وهو يقرأ المسند على أولاده ، فما كتبت منه حديثا واحدا وإنما كنت أميل إلى هديه وأخلاقه وأدابه » .

وهذه الملاحظات فى مجموعها تصور الشخصية الفريدة للامام أحمد من تشدد وتثبت فيما يتعلق بالكتاب والسنة . وعزوف وانصراف عن الناس مهما علت مراتبهم واعتبار العلم أداة لهدى الطالبين واجابة للسائلين والالتزام بالسمت والأدب والسكينة والتواضع ، والبعد عن - بل انتفاء - التشدد والزهو بالعلم والمعرفة . وأن يكون ظاهر المرء وباطنه ، علمه وعمله سواء وهى منازل لا يقدر عليها إلا القلة المصطفاة . وبحق قال الامام يحيى بن معين - وهو من هو - « أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، والله ما نقوى أن نكون مثله ولا نطبق سلوك طريقه » .

تقدير معاصريه وثناؤهم عليه

لقد كانت هذه الخلائق من العلم والعمل محل تقدير كل علماء عصره ، فشهدوا له وكتبوا عنه الكتب ، فأفرد البيهقي سيرته في مجلد ، كما أوردها ابن الجوزي في المناقب ، وأثبتها في مجلد لطيف أبو اسماعيل الأنصاري . وأورد سيرته بإفاضة الحافظ ابن كثير صاحب البداية والنهاية والحافظ الذهبي (أبو عبدالله شمس الدين محمد الذهبي) في تاريخه مطولا ومسهباً والخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد)

وفيما يلي بعض أقوال معاصريه عنه نقلا عن هذه المراجع ، قال حرملة : سمعت الشافعي يقول : خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلا أفضل ولا أعلم ولا أفقه من أحمد بن حنبل وقال علي بن المديني إن الله أيد هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة .

وبأحمد بن حنبل يوم المحنة . وقال أبو عبيد إنتهى العلم إلى أربعة أفقهم أحمد وقال البخاري لما ضرب أحمد بن حنبل كنا بالبصرة فسمعت أبا الوليد الطيالسي يقول لو كان أحمد في بني إسرائيل لكان أحدوثه ، وقال السهيل بن الخليل لو كان أحمد في بني إسرائيل لكان نبيا ، وقال المزني أحمد بن حنبل يوم المحنة وأبو بكر يوم الردة وعمر يوم السقيفة وعثمان يوم الدار وعلى يوم الجمل وصفين ، وقال بشر بن الحافى بعد ما ضرب أحمد بن حنبل أدخل أحمد الكير فخرج ذهابا أحمر وقال الميموني قال لي علي بن المديني بعد ما امتحن أحمد ياميمون ما قام أحد في الاسلام ما قام أحمد بن حنبل فعجبت من ذلك عجباً شديداً وذهبت إلى أبي عبيد القاسم بن سلام فحكيت له مقالة علي بن المديني فقال صدق . إن أبا بكر وجد يوم الردة أعواناً وأنصاراً وأن أحمد بن حنبل لم يكن له أنصار ولا أعوان ثم أخذ أبو عبيد يطري أحمد ويقول لست أعلم في الاسلام مثله ، وقال اسحق بن راهويه أحمد حجة بين الله وبين عبده في أرضه . وقال علي بن المديني إذا ابتليت بشيء فافتاني أحمد بن حنبل لم أبال إذا لقيت ربي عز وجل كيف كان . وقال الخلال سمعت أبا القاسم بن الجبلي وكفاك به يقول أكثر الناس يظنون أن أحمد إذا سئل كأن علم الدنيا بين عينيه . وقال إبراهيم الحربي رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين ، وقال عبدالرزاق ما رأيت أفقه من أحمد بن حنبل ولا أروع ، وقال المزني قال لي الشافعي رأيت ببغداد شاباً إذا قال حدثنا قال الناس كلهم صدق قلت من هو قال أحمد بن حنبل ، وعن حجاج بن الشاعر ما رأيت روحاً في جسد أفضل من أحمد بن حنبل . وعن محمد بن

ابراهيم البوشنجى قال ما رأيت أجمع فى كل شىء من أحمد بن حنبل ، ولا أعقل ، وقال الحسين الكرابيسى مثل الذين يذكرون أحمد عندنا مثل قوم يجيئون إلى أبى قبيس يريدون أن يهدموه ، وقال يحيى بن معين كان فى أحمد بن حنبل خصال ما رأيتها فى عالم قط كان محدثا وكان حافظا ، وكان عالما ، وكان ورعا وكان زاهدا وكان عاقلا وقال الذهلى اتخذت أحمد حجة فيما بينى وبين الله وقال أبو بكر محمد بن محمد بن رجاء ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، ولا رأيت من رأى مثله . وقال سمعت قتيبة يقول إذا رأيت الرجل يحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنة .

هذه هى بعض أقوال معاصرة فيه ، وهى تدل على إعجاب شديد وتوقير كبير ، وفى بعضها ما يفسح مجالا لتصوير المبالغة ، ولولا أن عمل الرجل نفسه وأثره فى تلاميذه ينفى ذلك . فمن يحيا مثل حياة أحمد بن حنبل ، ومن يصمد صموده يوم المحنة ، ومن يخرج للناس مثل المسند ، ومن يطبع تلاميذه بطابع التقوى والصلابة فى الحق - وهى كلها حقائق واقعة - لا يستكثر عليه ما قيل فيه ، وعلى كراهة الأتقياء لأحاديث المديح والثناء . فإن يحيى بن معين ، عندما أكثر جلساؤه الثناء على أحمد بن حنبل وقال رجل لا تكثرُوا . بعض هذا قال « وكثرة الثناء على أحمد تستكثر ؟ لو جلسنا مجالسنا بالثناء عليه ما ذكرنا فضائله بكمالها » .

والحق أن شخصية الامام أحمد بن حنبل وخلقه القوى وترفعه عن الدنيا وزهده فى زخرف الدنيا هو ما لا يقل قيمة وأثرا عن جمع الامام أحمد للمسند أو موقفه يوم المحنة ، لأنه أورث أتباعه هذا الخلق بحيث كاد أن يكون طابعا عاما يغلب عليهم ، وقد وصف أبو الوفاء بن عقيل الفقيه الحنبلى المتوفى سنة ثلاث عشرة وخمسائة أصحاب الامام أحمد بعد مرور زهاء ثلاثة قرون .

« هم قوم خشن ، تقلصت أخلاقهم عن المخالطة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجد وقل عندهم الهزل وغربت نفوسهم عن ذل المراءاة . وفزعوا عن الآراء إلى الروايات وتمسكوا بالظاهر تخرجوا من التأويل وغلبت عليهم الأعمال الصالحة فلم يدققوا فى العلوم الغامضة ، بل دققوا فى الورع وأخذوا ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك قالوا الله أعلم بما فيها خشية من بارئها » .

ونسب خمول المذهب الحنبلى إلى ورع أصحابه « هذا المذهب إنما ظلمه أصحابه ،

لأن أصحاب أبي حنيفة والشافعي إذا برع واحد منهم في العلم تولى القضاء وغيره من الولايات ، فكانت الولاية سببا لتدريسه واشتغاله بالعلم .

أما أصحاب أحمد ، فإنه قل فيهم من تعلق بطرف من العلم إلا ويخرجه ذلك إلى التعبد والتزهّد لغلبة الخير على القوم فينقطعون عن التشاغل بالعلم .

فإذا كان هذا هو حال أصحاب أحمد بعد ثلاثة قرون من وفاته ، فلنا أن نتصور أثره في تلاميذه ومريديه الذين جلسوا إليه وتأدّبوا بأدبه وبحق قال تلميذه أحمد بن محمد بن هاني أبو بكر الأقرم « أحمد بن حنبل رضى الله عنه ستر من الله على أصحابه فينبغي لأصحاب أحمد أن يتقوا الله ولا يعصوه مخافة أن يعيروا بأحد » ورفض تلميذه الآخر إبراهيم بن اسحق الحربى أن يقبل عشرة آلاف درهم أرسلها الخليفة المعتضد ، فسأله أن يفرقها على جيرانه فقال للرسول عافاك الله هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفريقه . قل لأمير المؤمنين إن تركتنا ، وإلا تحولنا من جوارك ! » .

صفته وأدبه

قال الحافظ الذهبي في كتابه « تاريخ الاسلام » .

قال عبدالله بن عبدالرحمن الذهبي حدثني أبي قال مضى عمي أبو إبراهيم أحمد بن سعد إلى أحمد بن حنبل فسلم عليه فلما رآه وثب قائما وأكرمه .

وعن عباس النحوى قال رأيت أحمد بن حنبل حسن الوجه ربعة يخضب بالحناء خضابا ليس بالقانى وفي لحيته شعرات سود ورأيت ثيابا غليظة إلا أنها بيض ورأيت معتما وعليه إزار .

قال المروزي قال أحمد « ما كتبت حديثا إلا قد عملت به ، حتى مر بي أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى أبا طيبة دينارا فأعطيت الحجام دينارا حين احتجمت .

وقال ابن أبي حاتم ذكر عبدالله بن أبي عمر البكرى قال سمعت عبد الملك الميمونى

يقول « ما أعلم أنى رأيت أحدا أنظف ثوبا ولا أشد تعاهدا لنفسه فى شاربته وشعر رأسه وشعر بدنه ، ولا أنقى ثوبا وشدة بياض من أحمد بن حنبل » .

وقال خلال أخبرنى محمد بن الجنيد أن المروزي حدثهم قال كان أبو عبدالله لا يدخل الحمام ، وكان إذا احتاج إلى النورة تنور فى البيت ، وأصلحت له غير مرة النورة واشترت له جلدا ليده يدخل يده فيه ويتنور .

قال حنبل رأيت أبا عبدالله إذا أراد القيام لجلسائه إذا شئتم .

قال عبدالملك الميموني « لم يكن أحد أنضر ثوبا ، ولا أشد تعاهدا لنفسه فى ثيابه وشعر رأسه وبدنه من أحمد ، وكان يحب الفقراء ويعرض عن أهل الدنيا ويجلس للفقهاء حيث انتهى به المجلس ولا يتصدر ، حسن الجوار . ولا يخشى فى الله لومة لائم » .

قال المروزي كان الامام أحمد إذا ذكر الموت خنقته العبرة وكان يقول الخوف يمنعنى أكل الطعام والشراب .

وقال إذا ذكر الموت هان كل شىء من أمر الدنيا انما هو طعام دون طعام ولباس دون لباس وإنما أيام قلائل وما أعدل بالفقر شيئا » .

وقال أريد أن أكون فى بعض تلك الشعاب بمكة حتى لا أعرف وقد بيت بالشهرة إنى لأتمنى الموت صباحا ومساء .

قال المروزي قلت لأبى عبدالله إنى لأرجو أن يدعى لك فى جميع الأمصار فقال ياأبا بكر إذا عرف الرجل قدر نفسه فما ينفعه كلام الناس .

وقال عبدالله خرج أبى إلى طرسوس ماشيا وحج حجتين أو ثلاثا ماشيا ، وكان أصبر الناس على الوحدة . وقال كان أبى يصلى فى يوم وليلة ثلاثمائة ركعة ، حتى مرض من تلك الأسواط أصعبته فكان يصلى كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة وقال إسحق بن راهويه كنت أنا وأحمد باليمز عند عبدالرزاق وكنت فوق الغرفة وهو أسفل فاطلعت على أن نفقته

فנית فعرضت عليه فامتنع فقلت إن شئت قرضا ، وإن شئت صلة فأبى فنظرت فإذا هو ينسج التكم ويبيع وينفق رواها أبو إسماعيل الترمذى عنه .

وعن أبى إسماعيل قال أتى رجل بعشرة آلاف درهم من ربح تجارته إلى أحمد فأبى أن يقبلها .

قال عبدالله عن أبيه عرض على يزيد بن هارون نحو خمسمائة درهم فلم أقبلها .

وكان الإمام أحمد رضى الله قد ورث عقارا ضئيل القيمة كان يغل فى كل شهر سبعة عشر درهما ، وكان يحاول الاكتفاء به قدر طاقة . وعندما تفجؤه حاجة أو تركبه ضرورة كان يعتمد إلى العمل الميسر له مادام حلالا ، ولم يكن هذا الامام الجليل ليستنكف عن أن ينسج أو ينسخ ، بل ويؤجر نفسه للحمالين ، ويفضل هذا كله على قبول الصلات التى كانت تعرض عليه فى سخاء ، حتى عندما تأتى من بعض شيوخه كعبد الرزاق ، كما رفض رفضا باتا أن ينال شيئا من الصلات التى كان الواثق يصله بها ويفرض عليه قبولها ، ومن باب أولى فإنه كان يرفض كل عمل يربطه بنظام الحكم ويشركه فيما يقوم عليه أو يلتبس به .

زوجاته وأولاده

قال الخلال أخبرنا المروزي أن أبا عبدالله قال ما تزوجت إلا بعد الأربعين .

قال زهير بن صالح بن أحمد « تزوج جدى بأُم أبى عباس بنت الفضل من العرب فلم يولد له منها غير أبى ثم ماتت .

قال المروزي سمعت أبا عبدالله يقول « أقامت معى أم صالح ثلاثين سنة فما اختلفت أنا وهى فى كلمة » .

وقال زهير لما ماتت عباسية تزوج جدى بعدها امرأة من العرب يقال لها ريحانة فولدت له عبدالله وحده .

وفى هذا نظر ، لأن عبدالله ولد للإمام أحمد وله خمسون سنة أى بعد زواجه من أم صالح بعشرة أعوام ، وفى رواية المروزي « أقامت معى أم صالح ثلاثين سنة الخ » كما أن من المعروف أن الامام أحمد لم يتزوج إلا بعد أن قارب الأربعين .

قال زهير بن صالح لما توفيت أم عبدالله « حسن » فولدت منه زينب ثم الحسن والحسين توأما وماتا بالقرب من ولادتهما ثم ولدت الحسن ومحمدا فعاشا حتى صارا من السن إلى نحو من الأربعين ثم ولدت بعدهما سعيدا .

قضية المحنة

نشأت هذه المحنة التى حملت اسم « خلق القرآن » من ان المعتزلة الذين كان لهم وقتئذ الخطوة لدى المأمون والغلبة الفكرية عليه كانوا ينفون الصفات عن الله تبارك وتعالى ورأوا أن التعبير السارى عن أن القرآن « كلام الله » يوحى بإثبات صفة ما ، فذهبوا إلى أن القرآن « مخلوق » ولم يعدوا الحجج من المنطق أو من تأويل بعض آيات القرآن الكريم ما يعززون به دعواهم وما يجعلهم يرون أن هذه المسألة هى من مسائل العقيدة الكبرى لأنها تتعلق بالله تعالى ، ومن ثم كان إصرارهم عليها وتمسكهم بها وإقحامهم أنفسهم فى معركة ضارية بدأت أولا بعزل كل الذين يختلفون معهم فى ذلك من المناصب ، ثم تطورت إلى مناظرة الشيوخ والعلماء وانتهت إلى إلزام كل الشيوخ والعلماء القول بذلك وتهديد كل من يرفض لاضطهاد قد يصل إلى حد القتل .

ومات المأمون قبل أن تصل الفتنة إلى مرحلتها الحاسمة ، ذلك أنه كان يؤثر المناظرة ، وأن هدد قبيل موته بحمل المخالفين على السيف . واستجاب كل الذين طولبوا القول لما أراد المأمون ، واعترفوا بدرجات متفاوتة - بخلق القرآن بحيث لم يبق فى بغداد فى النهاية سوى أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فكبلا بالحديد وسيقا إلى المأمون فى طرسوس ليأمر فيهما بأمره . واستشهد ابن نوح فى الطريق . قال الامام أحمد « مارأيت أحدا على حداثة سنه وقدر علمه أقوم بأمر من محمد بن نوح . وإنى لأرجو أن يكون قد ختم له بخير . قال لى ذات يوم يا أبا عبدالله الله الله أنك لست مثلى .. إنك رجل يقتدى بك . قدمت الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك فاتق الله وأثبت لأمر الله أو نحو هذا . فمات وصليت عليه ودفنته » .

ومن غير بغداد مات عالم مصر يوسف بن يحيى البويطى صاحب الامام الشافعى ، وهو فى قيوده بعد أن رفض الاقرار بما يريدون . كما توفى فى سجنه نعيم بن حماد .

وهكذا أصبح على الامام أحمد بن حنبل أن يواجه وحده العاصفة ، وتبلورت فيه وحدة القضية كلها . وكان له من الشهرة والاسم وأمل الناس فيه وتعلقهم به ما يجعل موقفه فاصلا . ومن هنا كانت تلك الأهمية التى علقها معاصروه على موقفه . واعتبروه « صاحب المنة على الأمة » وشبهوا موقفه بموقف أبى بكر يوم الردة وعمر يوم السقيفة ولعلهم أيضا كانوا يستطيعون أن يرقوا به « بدر » عندما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى ابتهاله المأثور اللهم أن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد اليوم .

وكان المعتصم راغبا كل الرغبة فى أن يرضخ الإمام أحمد بحيث لا يحتاج إلى استخدام القوة ، وحاول معه كل طرق الاسترضاء « يا أحمد والله إنى عليك لشفيق وإنى لأشفق عليك كشفقتى على هرون ابنى ماتقول . فأقول أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله » .

ومرة أخرى « يا أحمد أجبنى إلى شىء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي قلت أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله فطال المجلس وقام ورددت إلى الوضع الذى كنت فيه » .

وظلت هذه المحاورات والمداورات ثلاث ليال حتى ضجر المعتصم وقال « العقابين والسباط »^(١) فجاء الجلادون فقال لهم المعتصم تقدموا فجعل كل جلاد يضرب الامام

(١) هى ، كما يفهم من السياق خشبتان يعلق عليهما ، أو يثبت عليها من يراد جلده .

أحمد سوطين والمعتصم يقول له شد قطع الله يدك ثم يتنحى ويقوم الآخر والمعتصم يقول فى كل ذلك شد قطع الله يدك فلما ضرب تسعة عشر سوطاً من هذه السياط التى يستنزف كل اثنين منها فوه رجل قال المعتصم « يا أحمد علام تقتل نفسك إني والله عليك لشفيق !

وجعل عجيف (أحد رجال المعتصم) ينخسه بقائمة سيفه ويقول « أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم » وجعل بعضهم يقول ويلك الخليفة على رأسك قائم وقال بعضهم يا أمير المؤمنين دمه فى عنقى فاقتله وجعلوا يقولون يا أمير المؤمنين أنت صائم ، وأنت فى الشمس قائم وهو يقول ويحك يا أحمد ماتقول والامام أحمد لا يغير من قوله « أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله أقول به .. فيأمر الجلادين بالضرب قارنا الأمر بوصيته « شد قطع الله يدك ! » .

قال صالح قال أبى فذهب عقلى ، فأفقت بعد ذلك فإذا الأقياد قد أطلقت عنى فقال لى رجل ممن حضر إننا كبيناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بارية ودسناك . قال أبى فما شعرت بذلك وأتوني بسويق فقالوا لى أشرب وتقيأ فقلت لا أفطر ثم جىء بى إلى دار إسحق ابن ابراهيم فحضرت صلاة الظهر فتقدم ابن سماعة فصلى فلما انفتل من الصلاة قال لى صليت والدّم يسيل فى ثوبك فقلت قد صلى عمر وجرحه يثغب دماً .

وكانت المدة منذ أن أخذ إلى أن ضرب وخلقى عنه ثمانية وعشرين شهرا ، كان المعتصم فيها نهبة بين أن يلتزم بوصية سلفه المأمون وتوجيه مستشاره أحمد بن داود الذى لم يظل يؤكد له أن الامام أحمد كافر مشرك قد أشرك من غير وجه .. وبين أن يدعه عندما أعجب بشجاعته وأخذته الشكوك فى سلامة القضية كلها .

وفى الوقت نفسه فلم يكن أحمد بن أبى داود ليريد أن يقتل ، فعندما قال أحد أتباع المعتصم يا أمير المؤمنين اضرب عنقه ودمه فى رقبتى قال ابن أبى داود لا يا أمير المؤمنين لاتفعل فإنه إن قتل أو مات فى دارك قال الناس صبر حتى قتل فاتخذوه اماما وثبتوا على ما هم عليه ، ولكن أطلقه الساعة فإن مات خارجاً عن منزلك شك الناس فى أمره .

وهكذا انتهى الرأى إلى الافراج عن الامام أحمد وعلان ذلك على الملأ ، حتى اذا مات وهو فى بيته ، قال حنبل ابن اسحق لما أمر المعتصم بتخلية أبى عبد الله خلع عليه مبطنة وقميصا وطيلسانا وخفا وقلنسوة فبينما نحن على باب الدار والناس فى الميدان والدروب وغيرها وأغلقت الأسواق اذ خرج أبو عبد الله على دابة من دار أبى اسحق المعتصم وعليه تلك الثياب وابن أبى داود عن يمينه واسحق بن ابراهيم يعنى نائب بغداد عن يساره ، فلما

صار الى دهليز المعتصم قبل أن يخرج قال لهم ابن أبى داود اكشفوا رأسه فكشفوه يعنى من الطيلسان فقط وذهبوا يأخذون به ناحية الميدان نحو طريق الحبس فقال لهم اسحق خذوا به ههنا يريد دجلة فذهب به إلى الزورق وحمل إلى دار اسحق فأقام عنده إلى أن صليت الظهر وبعث إلى أبى وإلى جيراننا ومشايخ المحال فجمعوا وأدخلوا عليه فقال لهم هذا هو أحمد بن حنبل إن كان فيكم من يعرفه ، وإلا فليعرفه فقال ابن سماعة حين دخل للجماعة هذا أحمد بن حنبل فإن أمير المؤمنين ناظر فى أمره وقد خلى سبيله وهاهو ذا فأخرج على دابة لاسحق بن ابراهيم عند غروب الشمس فصار إلى منزله ومعه السلطان والناس وهو منحنى فلما ذهب لينزل احتضنه ولم أعلم فوقعت يدي على موضع الضرب فصاح فنحيت يدي فنزل متوكئا على وأغلق الباب ودخلنا معه ورمى بثوبه على وجهه لايقدر يتحرك إلا بجهد وخلع ماكان قد خلع عليه فأمر به فبيع ، وأخذ ثمنه فتصدت . .

وأوى الامام أحمد بن حنبل إلى بيته ووجه إليه من يبلغ خبره يوما بعد يوم ، ومن يعالج جروحه ، وكان قد أصيب فى غير موضع وظل أثر الضرب بينما فى ظهره إلى أن توفى وظلت ابهاماه متخلعتين تضربان عليه فى البرد حتى يسخن له الماء . وجعل الامام أحمد كل من أصابه فى حل الا مبتدع مطبقا قول الله تعالى « وليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم » ومتبعا توجيه النبى صلى الله عليه وسلم بالعفو عن مسطح قائلا العفو أفضل . وعاد الامام أحمد إلى مجلسه بالمسجد ودرسه حتى مات المعتصم وولى الواثق .

وواصل سياسة سلفه فى الأخذ بخلق القرآن ، ولكنه لم يشأ أن يعيد القصة مع الامام أحمد بعد أن رأى أنها أكسبته المهابة والجلال والمحبة والتقدير فأرسل إليه نائبه اسحق ابن ابراهيم برسالة فى موهن الليل « يقول لك الأمير إن أمير المؤمنين قد ذكرك فلا يجتمعن إليك أحد ولا تساكنى بأرض ولا مدينة أنا فيها فاذهب حيث شئت من أرض الله » .

واختفى الامام أحمد قال ابراهيم بن هانى اختفى أحمد بن حنبل عندي ثلاثة أيام ثم قال اطلب لى موضوعا قلت لا أمن عليك قال افعل فطلبت له موضوعا فلما خرج قال لى اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاثة أيام ثم تحول .

وظل الامام أحمد على هذا الحال حتى توفى الواثق وولى المتوكل ، فأنهى تلك المأساة ووضع ختامها بعد أن ثبت فشلها وكتب المتوكل إلى اسحق بن ابراهيم برفع الحظر على الامام أحمد وإكرامه . وأرسل اليه كتابا ومعه بدرة وقال الامام أحمد إنه قد صبح عند أمير المؤمنين براءة ساحتك وقد وجه إليك بهذا المال تستعين به فأبى أن يقبله وقال مالى إليه

حاجة فقال يا أبا عبد الله أقبل من أمير المؤمنين ما أمرك به فإن هذا خير لك عنده فأقبل ولا تردده فانك إن رددته خفت أن يظن بك سوءاً فحينئذ قبله ، ولكنه لم يستطع النوم ، فلما كان السحر أرسل إلى بعض أصحابه ووجههم الى توزيع المال على من يعلمون من أهل الستر والصلاح ببغداد والكوفة ففرقوها كلها فما بقى فى الكيس درهم ثم تصدق بالكيس نفسه على مسكين .

والحقيقة أن ولاية المتوكل وإن أنهت فصل الاضطهاد فى تلك المأساة إلا أنها فتحت فصلاً آخر هو فصل الاصطناع فقد حاول المتوكل بكل طريقة أن يجتذب إليه الامام أحمد ويجعله من خلصائه ورفض الامام أحمد ذلك ، بل رفض أن ينال من أحمد بن أبى داود أو يذكره بشيء مع أنه تولى كبر هذه الفتنة وشهد على الامام أحمد أنه « أشرك من غير وجد » وأجبره المتوكل على الذهاب إليه واضطر الامام لأن يذهب ولكنه لم يقبل ضيافة المتوكل ، فلم ينزل فى الدار التى أعدها له ، ولم يأكل من المائدة التى رتبها ، بل لقد أمرضه هذا كله ، واحتج بهذا المرض فى رفض الأكل والشراب واللقاء ووجه إليه المتوكل بمال عظيم فردده فقال عبيد الله بن يحيى بن خافان فإن أمير المؤمنين يأمر أن تدفعها إلى ولدك وأهلك قال هم فردها عليه فأخذها عبيد الله فقسمها على أهله وولده ثم أجرى المتوكل على أهله وولده أربعة آلاف فى كل شهر فبعث إليه الامام أحمد أنهم فى كفاية وليست بهم حاجة فبعث إليه المتوكل إن هذا لولدك مالك ولهذا فأمسك

ولما طال العلة به أرسل المتوكل ابن ماسويه الطبيب فزاره ثم عاد إلى المتوكل وقال إنه ليست به علة فى بدنه إنما هو من قلة الطعام والصيام والعبادة . فسكت المتوكل .

وأمر المتوكل بشراء دار للامام أحمد ولكن رفض ذلك قائلاً إنما يريدون أن يصيروا هذا البلد لى مأوى ومسكناً قال صالح فلم نزل ندفع شراء البيت .

وأكبرت هذه الرعاية الامام أحمد كرباً شديداً حتى كان يبكى ويقول سلمت من هؤلاء ستين سنة حتى إذا كان فى آخر عمرى بليت بهم والله لقد تمنيت الموت فى الأمر الذى كان (أى فى فتنة المعتصم) وانى لأتمنى الموت فى هذا وذلك أن هذا فتنة الدنيا وذلك فتنة الدين ثم جعل يضم أصابعه ويقول لو كانت نفسى فى يدى لأرسلتها ويفتح أصابعه .

وكان المتوكل يوجه فى كل وقت يسأل عن حاله ويأمر لآله بالمال دون أن يعلم الامام أحمد بذلك . وحسن رأيه فى الامام أحمد بعد مارأى من صدوده حتى رفض فيه كل الوشائيات وعندما قالوا له إنه لا يأكل من طعامك ، ولا يجلس على فراشك ويحرم الذى تشرب قال لهم « لو نشر المعتصم وقال فيه شيئاً لم أقبل منه » .

ولما تأكد المتوكل من عقم كل محاولاته اصطناع الامام أحمد أو تقريبه سمح له بالعودة وأذن له فى الانصراف فجاء عبيد الله بن يحيى وقت العصر وقال للامام أحمد إن أمير المؤمنين قد أذن لك ، وأمر أن تفرش لك حراقة ^(١) تتحدر فيها فقال أبو عبيدة الله أطلبوا لى زورقا فأنحدر فيه الساعة فطلبوا له زورقا فأنحدر من ساعته .

قال حنبل ، فما علمنا بقدومه لى إنه قد وافى فاستقبلته بناحية القطيعة وقد خرج من الزورق فمشيت معه فقال لى تقدم لا يراك الناس فيعرفونى فيتقدمت بين يديه حتى وصل إلى المنزل فلما دخل القى نفسه من التعب والعياء .

وكان فى حياته ربما استغار الشيء من منزلنا ومنزل ولده فلما صار إلينا من مال السلطان ما صار امتنع عن ذلك .

وانتهى بذلك أمر المحنة بعد أن استمر أربع عشرة سنة ثبت لها الامام أحمد بن حنبل ثبات المؤمنين الصادقين .

وقد وقف الامام أحمد رضى الله عنه موقفين جديرين بالتأمل والتقدير

الاول : موقف الصلابة والبطولة وايتار الموت على التفريط أو التسليم ، وأن « التقية » لا يمكن أن تقبل من إمام الداعية القدوة وان قبلت من سواد الناس وجماهيرهم .

والثانى : العبارة التى أجمل فيها الامام أحمد رضى الله عنه رده على هؤلاء المعتزلة فرسان الكلام وأئمة الجدل . فقد رفض أن يدخل فى نقاش ، وتمسك بصيغة واحدة محددة للبس فيها « أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول فيه » وقد أجمل الامام أحمد فى كلمته هذه المذهب الأمثل والعقيدة السليمة ، فما لم يأت القرآن أو الحديث بشىء فى هذا المجال ، فإن الجدل والرأى وإعمال الفكر مستبعد تماماً ، ولا محل له لأنه يتعلق بصفات الله عز وجل . وهى صفات لا يدركها العقل البشرى ولا تخضع لأحكامه أو تصوراته - ولو جاز أن يهتدى إليها العقل لما كان ثمة حاجة لارسال الرسل

(١) أى سفينة خفيفة خاصة .

وبعثة الانبياء ولجاز أن يقوم بهذا الفلاسفة أو العلماء . فالذين يتصورون أن العقل البشرى يستطيع أن يدرك صفات الله تعالى ، إنما يطعنون الدين ويحاولون هدمه وخذع الناس بمفترياتهم (ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون) .

وكل ماسوى الايمان القلبى فى هذا المجال فهو مجازفة خطيرة ، وأخذ بأقيسة باطلة . واعتماد على براهين عاجزة أو فاسدة ، وتوريط للنفس فى متاهات دون هدى أو دليل ، ولعل الامام أحمد رضى الله عنه كان يستطيع أن ينفذ هذه الدعوى ويدخل فى الجدل ولكنه أثر أن يقف موقف أهل السنة ، وأن يضع - فى هذه المسألة الكبرى من مسائل الاعتقاد - السنة والاتباع فى مواجهة الهوى والابتداع ، لأن هذا الوضع هو الوضع الحاسم فى هذه القضية - لأن الاجتهاد مستبعد أصلاً فى هذا المجال بحيث لايمكن التفكير فيه كوسيلة للاتصال وكسب الخصوم . فالامام أحمد كان يرى حل المشكلة إنما يكون فى « الموقف » الذى وقفه وبالتالي لا يكون هناك داع لحل آخر . ولو أراد مثل هذا الحل لما أعوزه ، ولما كان يعجزه أن يقول ماقاله واحد من عامة المسلمين عندما جابه أحمد بن أبى داود « شىء لم يدع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، تدعو أنت الناس إليه .. ليس يخلو أن تقول علموه أو جهلوه . فإن قلت علموه وسكتوا عنه وسعنى وإياك من السكوت ماوسع القوم ، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت ، فيالكع بن لكع : يجهل النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم شيئاً وتعلمه أنت » .

كما لم يكن ليدق على ذكاء الامام أحمد وفراسته ماأدركه أحد أتباع الواثق عندما دخل عليه يوماً وقال له « ياأمير المؤمنين أعظم الله أجرك فى القرآن » فقال ويلك القرآن يموت ؟ قال أمير المؤمنين كل مخلوق يموت .

كان الامام أحمد رحمه الله يستطيع أن يقول شيئاً كهذا ولكنه لم يكن يريد خلاصاً من محنة أو انتصاراً على الخصوم ولكن تقريراً لمبدأ ، وتحديداً لموقف وكيف يميل الامام أحمد ويجادل فى عقيدة وهو الذى يحمل بين جنبيه كتاب الله وتمتزج روحه بالسنة المطهرة ومن هنا قال « أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله حتى أقول به » .

وفى كلام الامام أحمد ، وفى كثير من كتبه ووصاياه بين أن الموقف السليم هو ترك الجدل والمراء واطراح الخصومات والأهواء والوقوف عند السنة المطهرة ، وعدم افساد

القلوب بهذه الشبه والاستدلال على الله ببدیع صنعہ وسایغ نعمه بل الاستدلال علیها بخالقها ومبدعها جل جلاله .

ذكر مرضه ووفاته رحمه الله

قال المروزي : مرض أبو عبد الله ليلة الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأول ومرض تسعة أيام ، وكان ربما أذن للناس فيدخلون عليه أفواجاً يسلمون عليه ويرد عليهم بيده وتسامع الناس وكثروا ، وسمع السلطان بكثرة الناس فوكل السلطان بنابه وبياب الرقاق الرابطة الأخبار ثم أغلق باب الرقاق فكان الناس في الشارع والمساجد حتى تعطل بعض الباعة وحيل بينهم وبين البيع والشراء ، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل إليه وصل من بعض الدور وطرد الحاكة وربما تسلق وجاء أصحاب الأخبار فقعدها على الأبواب وجاءه حاجبه ابن طاهر فقال إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك فقال هذا مما أكره وأمير المؤمنين أعفاني مما أكره ! وأصحاب الخبر يكتبون بخبره إلى العسكر والبرد تختلف كل يوم وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه وجعلوا يبكون عليه وجاء قوم من القضاة وغيرهم فلم يؤذن لهم فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين قال ادعوا لي الصبيان بلسان ثقيل فجعلوا ينضمون إليه وجعل يشمهم ومسح بيده على رؤوسهم وعينه تدمع .

فلما كانت ليلة الجمعة ثقل وقبض صدر النهار فصاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجت ، وامتألت السكك والشوارع .

قال البخاري مرض أحمد بن حنبل لليلتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول .

قال صالح وجه ابن طاهر يعني نائب بغداد بحاجبه مظفر ومعه غلامين معهما مناديل فيها ثياب وطيب فقالوا الأمير يقرئك السلام ويقول قد فعلت ما لو كان أمير المؤمنين حاضراً كان يفعل ذلك فقلت أقرئ الأمير السلام وقل له إن أمير المؤمنين قد كان أعفاه في حياته مما يكره ، ولا أحب أن أتبعه بعد موته بما كان يكره في حياته فعاد وقال يكون شعاره فأعدت عليه مثل ذلك . وقد كان غزلت له الجارية ثوبا عشائرياً قوم بثمانية وعشرين درهماً ليقطع منه قميصين فأدرجناه في ثلاث لقائف واشترينا له حنوطاً وفرغ من غسله

وكفناه وحضر نحو مائة من بنى هاشم ونحن نكفنه وجعلوا يقبلون جبهته حتى رفعناه على السرير .

قال عبد الله بن أحمد صلى على أبي محمد بن عبد الله بن طاهر غلبنا على الصلاة عليه ، وقد كنا صلينا نحن والهاشميون فى الدار .

قال صالح وجه ابن طاهر من يصلى عليه قلت أنا فلما صرنا إلى الصحراء إذا ابن طاهر واقف فخطا إلينا خطوات وعزانا ووضع السرير فلما انتظرت هنيهة تقدمت وجعلت أسوى صفوف الناس فجاءنى ابن طاهر ، فقبض (ابن طالون) على يدى ومحمد بن نصر على يدى وقالوا الأمير فما نعتهم فنحيانى وصلى ولم يعلم الناس بذلك - فلما كان من الغد علم الناس فجعلوا يجيئون ويصلون على القبر ، ومكث الناس ماشاء الله يأتون فيصلون على القبر .

وحضر جنازته جمع حاشد لم ير مثله فى جاهلية أو إسلام وقدرته بعض المراجع بألف وثلاثمائة ألف ، بينما قدرته مراجع أخرى بسبعمائة ألف ، وقيل حضرها من الرجال ثمان مائة ألف ومن النساء ستون ألفاً .

فكانت الجنازة جليلة مهيبة ، وحدثاً فذاً ورزقت من حرص الناس عليها ماجعل الخليفة ، الذى كان غائبا وقتئذ عن بغداد يقول لنائبه (محمد بن عبد الله بن طاهر) « طوبى لك محمد .. صليت على أحمد بن حنبل رحمه الله » .

ولو أردنا تقصى عناصر القوة والثبات فى هذه الشخصية الفريدة لرأيناها كلها تدور حول محور واحد ، ذلك هو التجرد لله ، الذى قام على أركان منها الايمان العميق بالله تعالى وأنه وحده الخالق القادر فوق عباده ، وأن من دونه لا يملكون لأنفسهم ، أو لغيرهم شيئاً ومن هذا الايمان استمد شجاعته وثباته أمام كل القوى الباطشة أو المغريات الدنيوية . ومنها الاقتداء بسيرة النبى ﷺ بحيث أصبحت منهجه فى حياته وسلوكه وأكله وشربه ولبسه وأدبه فقد تشرب السنة واصطبغ بها ، ومنها الانصراف عن زخرف الحياة ومتاعها والرضا بالكفاف والابتعاد عن كل ما يضيع الوقت أو يشغل النفس عن العلم والحديث .

وأخيراً ما وهبه الله من توفيق أعانه أن يلزم نفسه هذا الطريق ، ويأخذها بما يتطلبه من

زهد ، وينأى بها عن سفساف الأمور . قال الشافعى خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلاً
أفضل ، ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل وقال عبد الرزاق ما رأيت أفقه من أحمد
ابن حنبل ولا أودع وقال الزعفرانى ما رأيت أعقل من أحمد بن حنبل وسليمان بن داود
الهاشمى وقال محمد بن ابراهيم البوشنجى ما رأيت أجمع فى كل شىء من أحمد بن حنبل
ولا أعقل .

بهذه الصفات كان أحمد بن حنبل رجلاً عالمًا زاهدًا ، ورعا قويًا ، من الذين تزيدهم
العبادة قوة وهمة فخرج على الناس بهذا الكتاب الجامع « المسند » ليكون للناس إماماً .

رحم الله أبا عبد الله رحمة واسعة وأثابه بما قدم من خلق رفيع وعلم غزير تقبس منه
الأجيال جيلاً بعد جيل حتى يرث الله الأرض ومن عليها .